عائشة عصمت تيمور

(٩)

شعرها

٢ — شعرها العائلي

أليست الجامعة وحب التفاهم لتيسير العلاقات بين أعضاء البيت الواحد، وتحل من المشاكل ما قد لا يفلح في حلّه الصراحة والعناد ؟

تكاد تتوحد العاطفة والمجاملة في بعض شعر عائشة العائلي. لأن الملاينة تتخذ لهجة أقرب إلى النفس في مثل ترحيبها هذا بولادة شقيقها :

غنّى فؤادُ الأمّ أهلاً بالذي مذ جاء أشرقتِ المنازلُ بالسنا

وفي قولها يوم بدأ يقرأ، كأنما هي رأت في المستقبل المرتبة العلمية التي هو بالغها :

لاح السعودُ وأسفر التفويقُ وتلا لنا سور العلا توفيقُ (١)
رقم الفقيهُ له على لوح الهدى أقبلْ، فانك للنجاح رفيقُ

وفي وصف هدية بعث بها عريس شقيقتها إلى عروسه :

تهادينا الزهور فعطّرتنا وللنسمات تعطيرٌ مضاعفْ
سألنا ما الذي أزكى شذاها فقيل لانها نفحات «آصف» (٢)

وقولها في ختان ولدها :

دقّت له البيداء دفّ سرورهِ لما زها عن ثغره البسّام
وغدت تغرّد نجمهُ لمّا بدا ودعتهُ في افق المسرّة سامي
. . . . . .
رمقتهُ احداق الورى من بشرها وصفت لهُ الارواح في الاجسام

هذا شعور الامّ. ولأنها ترمق ولدها بالبشر، وتصفو لهُ روحها، فهي لا تقبل في الثناء عليه بعد ذلك معارضةً ولا انكاراً، فتكتب اليه مرّة تطلب كتاب «درّة المختار» :

(١) اسم تيمور باشا في الاصل « احمد توفيق » ثم قلب اسم « احمد » على ما قيل لي وبه وحده عرف (٢) آصف باشا

طروسٌ حُرِّرت نوراً فحاكت نسمة الاسحارْ
سأودعها تحيّات بها عرفُ الصبا قد سارْ
الى عالي المكانة مَنْ سما في المجد والمقدارْ
لهُ همٌ اذا ظهرتْ توارتْ دونها الاقمارْ
بذاك الأمُّ قد شهدتْ فأنّى لابنها الانكارْ ؟
. . . . . .
وارجو من معاليكم سريعاً « درة المختار »

وتكتب اليه مرّة اخرى مشتاقةً صادقة ، وفي السطر الاخير مثالٌ من ذكرها لاسمها أما النظر الأول فمن ألذّ أحاديث الأمومة :

قلبي لبعدك لم يحمدْ مجاورتي وفرّ نحو حبيب في حشاهُ ربي
قلْ لي بطلعتك الغرّا وعزّتها واحكم بما ترتضي مُتّعت بالارب
من غير قلب اتبق روح عائشة ؟ . . . . . .

***

أصدقُ صورة من شعرها الناثيّ في المرائي ، ولا سيما مرثاة ابنتها المحبوبة توحيدة. وهي القصيدة الوحيدة تقريباً التي يذكرها الناسُ من شعرها زاعمين انها خير ما نظمت التيمورية . وحكمهم في هذا حكمهم في كثير من الشؤون : يقرّون رأياً ما ، ويعززونهُ ، ويتعصبون لهُ قبل الاطلاع على سواهُ بروح التساهل ، وقبل ان يصرفوا ولو دقائق في البحث والمقارنة

واضيف الى هذه المراثي الاربع مرثاتها للشيخ ابراهيم السقّا الذي يلوح كأنهُ عضوٌ من عائلتها المعنوية . فتتوجّعُ لفقده :

الدهر ابدل راحتي بعناء واعتاض صفو تنعّمي بشقاء
شجنٌ عرى الاسلام بالظمأ الذي حلّ العرى بضمائر العلماء
. . . . . .
أمحت حصيداً ارض ازهرنا التي كانت به كالدوحة الخضراء
تشكو الاوام وما بها من مطفىء مذ غاب سقّاء الملى بالماء
. . . . . .

قلبي عليه غداكجمرات الغضا والوعتي من حرّه وشقائي
فلاذرفنّ اسيً عليه مدامعي مادمتُ عائشةً بخدر فنائي

اسمها من جديد . يصحبهُ وصفٌ كاربهُ من التحجُّب اذ تدعو خدرها « خدر فنائها » . اما في مرثاة والدتها فتطلب للراحلة الرحمة ، وتهنىء القبر بنزيلته الخدّرة التي لم تسفر لغريب :

يا قبر ، فاهنأ بالتي اخرزتها في دُرَّةً بالدرج لاحت تسطعُ
. . . . . .
يا ربّ ، فاجعل جنّة المأوى لها داراً بطيب نعيمها تتمتّعُ
واسكب على حصبائها سحب الرضى فضلاً ، وان تلكُ قدسقتها الادمعُ
يهنأ لارباب النعيم نعيمهم . . . . . .

وبعد هذا الامتثال تنتفض صائحةً بالموت الذي فطّر حشاشتها. إلا ان صيحتها تظلُّ استرحاماً . وما ابلغ وصفها الردى « بمنهل التشتيت » ، على قياس النظرة الدنيوية التي تختبر به الفراق المُرّ ، دون الامل الروحيّ الذي يرى فيه وسيلة الاجتماع والاتحاد :

يا منهل التشتيت ، حسبك ما جرى فعيوننا قد اقسمتْ لا تهجعُ
ذهب الاحبّة واستقلّ ركابهُم يا ليت روحي ودّعتْ اذ ودّعوا
يا ليتهم طلبوا الفداء فهذه روحي ولكن «ليت» ليست تنفعُ

وفي رثاء شقيقتها :

أخيبتي ، كيف الرضا يتشتت قد ضرّ بالاخوان والاولاد

في هذه المرثاة ترتفع التيمورية لحظةً الى ما فوق الندب والرثاء :

يا من أتى للقبر يقرأ طرسهُ مهلاً ، فليس كتابهُ بمداد
وأعدْ لهُ نظراً فانّ حروفهُ كتبت بذوب العين والاكباد

وفيها هذا البيت الذي يسجّل بداهةً وجوب انحلال الصور الكونية ليتسنّى لها ان تتآلف وتتشكل مرةً اخرى . فيتمّ بذلك ناموسٌ من اكبر النواميس في الوجود :

وُجدت ، وأعدمها الزمان حياتها ما أقرب الاعدام للايجاد !

***

تولد المرأة أحيا ضوف التوليد الحسوس . فاحوال حياتها جميعاً تهيأ لهذه الوظيفة وتتجه نحوها أتجاه الانهار الى البحر . ولقد شبهت الامّ دواماً بالطبيعة، تلك الامّ العظمى . وكان ما يرمز الى امومة الطبيعة ووظيفة التوليد الرائع فيها ، أنثى في جميع اديان الاقدمين : فايزيس المصريين « تلك الالهة التي بدأت التوليد الالهيّ ، الامّ الالهية التي ولدت جميع الاشياء » ، واللواتي قمن مقامها في الميثولوجيات الاخرى ، يرمزن الى المرأة القادرة بامومتها ، الممثلة الطبيعة بوظيفتها القائمة حلقةً مغناطيسية بين الحياة والحياة

فما هو شعورها يوم ترى مخلوقها جامداً في حضنها هامداً؟

لا عجب أن يبدو الكون عندئذٍ متهدماً في نظر الكلى ، وان ينقلب الروض قفراً ، وان يغشى النور ظلام . ولا عجب ان يكون غمها الاكبر الذي لا يحتمل ان يظلّ هذا الكون المتهدّم لها عامراً لسواها ، ويظلّ هذا النور منتشراً ينير الناس ويفرحهم في حين يدلهم الجوّ حولها

أيّ مأساة هذه التي تتصدّعُ من جرّائها الخليقة ؟ أغمضت توحيدة عينيها ، فكلّ الحياة عند عائشة سواد وتهدّم وتفجّع وتناقض أليم

سُتر الضنا ، وتحجبت شمس الضحى وتغيّبت بعد الشروق بدورُ
ومضى الذي أهوى وجرّعني الاسى . . . . . .
. . . . . .
طافت بشهر الصوم أكواب الردى سحراً وأكواب الدموع تدورُ
فتناولتْ منها ابنتي فتغيّرت وجناتُ خدّ شأنها التغيرُ
فذوت أزاهيرُ الحياة بروضها وانقدّ منها مائسٌ ونضيرُ
يا زوج روحي ، حلّها ثرعُ الضنا عمّا قليل ورقها ستطيرُ

***

من أرقّ قصائد تنسن الانجليزي وأدقها على شاعرينه الحنون قصيدة « ملكة مايو » . وهي عادة جرى عليها الانجليز في بعض المقاطعات ان يختاروا كلّ عام من بناتهم ملكةً للربيع

فاذا شئت ان تقف على مثال من توارد الخواطر فاقرأ قصيدة تنسن المذكورة "The May Queen" وقابل بينها وبين مرثاة التيمورية لابنتها ضارباً صفحاً عن الاتساق التامّ في قصيدة الشاعر الانجليزي ، وعن نقيض ذلك في قصيدة الشاعرة المصرية . تجد العاطفتين تتلامسان في غير موضع . واذكر ان عائشة كانت تجهل الانجليزية ، وان هذه القصيدة لم تنقل في عصرها الى العربية . وأظنها لم تنقل يعدئذٍ وقد اكون مخطئة

فتاة تنسن تقول مودعةً والدتها ساعة الموت :

You'll bury me, my Mother, just beneath the hawthorn shade,
And you'll come sometimes and see me where I am lowly laid,
I shall not forget you, mother, I shall hear you when you pass,
With your feet above my head in the young and pleasant grass.

I have been wild and wayward, but you'll forgive me now ;
You'll kiss me, my own mother, and forgive me ere I go ;
Nay, nay, you must not weep (٣)

وتوحيدة تقول :

والقبر صار لغصن قدّي روضةً ريحانها عند المزار زهورُ

وتقول :

أمّاه ، قد عزّ اللقاء وفي غدٍ سترين امشي كالعروس يسيرُ (٤)
وسينتهي المسعى الى اللحد الذي هو منزلي، ولهُ الخضوع نسيرُ (٥)

---

(٣) « ادفنوني يا اماه ، في ظل اشجار الزعرور
« وزوريني أحياناً حيث انا متوارية
« لن انساك يا اماه ، وعند ما تمرين
« سأسمع وقع خطاك على الحشيش النمر اللطيف »

« كنت شرسة عنيدة الا انك الآن تسامحيني
« قبليني يا اماه : وسامحيني قبل ان امضي
« لا ، لا . ينبغي الا تبكي »

(٤) و (٥) في توارد اللفظة الواحدة في بيتين متتابعين مثال لتكرار الالفاظ ذاتها في ديوان التيمورية . وارجح ان هذا التكرار عيب من العيوب المطبعية الكثيرة فيه . لان عائشة لم تكن فقيرة اللغة على سهولة اسلوبها في التعبير

قولي لربّ اللحد « رفقاً بابنتي جاءت عروساً ساقها التقدير ! »
وتجلّدي بازاء لحدي . . . . . .
. . . . . .
امّاه ، لا تنسي بحقّ بنوّتي قبري لئلاّ يحزن المقبورُ

فتاة تنسى تذكر حبيبها فتقول :

And say to Robin a kind word, and tell him not to fret;
There's many worthier than I, would make him happy yet.
If I had lived — I cannot tell — I might have been his wife.
But all these things have ceased to be, with my desire of life (٦)

وتوحيده لا تذكر اسماً ، انما تشير الى الزواج الذي كان قريباً — لولا الموت :

امّاهُ ، قد سلفت لنا امنية يا حسنها لو ساقها التيسيرُ !
كانت كاحلام مضت ، وتخلفت مذ بان يوم البين وهو عسير
عودي الى ربع تخلا ومآثر . . . . . .
صوني جهاز العرس تذكاراً ، فلي قد كان متهُ الى الزفاف سرورُ

وكما تطلب فتاة تنسى الصلاة ، وتبارك الكاهن الذي أسرّ اليها بكلمات الرحمة والسلام فانهما عذوبة الغفران ، وحبّب اليها الموت بعد ان كان مخيفاً ، وأكّد لها ان المسيح الذي « مات لاجلها سيبلغها السماء » — كذلك تطلب توحيده ان يزار قبرها وان تتلى الصلوات على روحها لتحظى برحمة الربّ الغفور :

امّاهُ ، لاتنسي بحق بنوّتي قبري لئلا يحزن المقبورُ
ورجاء عفو ، أو تلاوة منزل ، فسواك من لي بالحنين يزورُ
فلعلها أتحظى برحمة خالق هو راحمٌ ، برٌّ بنا ، وغفورُ

***

الأم عند تنسى لا تسمعنا صوتها . اما عائشة فتنتحبُ وتعدُ وتبكينا :

---

(٦) « قولي لروبن كلمة مواساة وقولي له ان لا يحزن
« كثيرات غيري خير مني قد يجعلنه سعيداً
« لو عشت لربما كنت اصير له زوجة
« الا ان جميع هذه الاشياء تلاشت مع رغبتي في الحياة »

بناهُ ، يا كبدي ولوعة مهجتي قد زال صفوهُ شأنهُ التكديرُ !
لا توصي تكلى قد اذاب وتينها حزنٌ عليكِ وحسرةٌ وزفيرُ
فسماً بغضِّ نواظر وتلهفي مذ غاب انسانٌ وفارق نورُ
وبقبلتي ثغراً تقفّى نحبهُ فحرمتُ طيب شذاه وهو عطيرُ
والله لا اسلو التلاوة والدعا .....
كلا ، ولا أنسى زفير توجّعي والقدُّ منك لدى الثرى مدثورُ
ابكيك حتى نلتقي في جنّةٍ برياض خلد .....

انها تؤمن بالخلود ، لذلك يعقب تفجعها الخضوع . وبينا هي تقول بلسان الجسد :

قد كنتُ لا ارضى التباعد ساعةً كيف التصبّر والبعاد دهورُ ؟
ولهي على توحيدة الحسن التي قد غاب بدر جمالها المستورُ

اذا بها يتجه انتباهها الى ما وراء الموت فتذكر ان الفراق الطويل والانفصال المحسوس لا يجرّدانها من فخر الامومة واغتباطها . فتقول بامتثال حزين وقد عنا أملها بالاجتماع المنتظر :

هذا النعيم به الاحبّةُ تلتقي لا عيش الاّ عيشهُ المشكورُ

وتشكر الله على كلّ حال :

فلهي وجفني واللسان وخالقي راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفورُ

ابنتها ان فقدت بها « كبدها ولوعة مهجتها » فانها رغم ذلك ، الفتاة الصغيرة التي لا تستطيع ان تكون لوالدتها الحصن الحسيّ والمساعد الذي يخفف الاثقال ويروّح الأعمال . صدر والدها هو لها ذلك الملجأ في الحزن واليأس ، ومن قلبه التعزية ومن مقدرته المعونة . فيوم تفقده تفقد الشاعرة هذه الشفقة التي تلذّ لها من أبيها وتذلّلها من الناس :

ياحسرة ابنتهِ اذا نظرت لها عيناهُ عينٌ من البأساء
يا كنز آمالي وذخر مطالبي وسعود اقبالي وعين شفائي
ياطبّ آلامي ومرهم قرحتي وغذاء روحي، بل ونهر غنائي
أبتاه ، قد جرّعتني كأس النوى يا حرّ جرعتهِ على أحشائي

وهذا الانين يستحضر لذاكرتي انين ابن أخيها المرحوم محمد تيمور فيما بعد عند ضريح والدتهِ في ساعة غمّ متفجّع قانط :

امّاه ، قومي واسمعي امّاه ، مالك لا تجيبي ؟
أرأيت دمع محاجري وسمعت يا امي نحيبي ؟
هل راع قلبك ما لقيتُ من النوائب والكروب ؟
ان الوجود صحيفة ملأى باسرار القلوب
خلقتني للهمّ فيه وللشدائد والخطوب
امّاه ، اني قد طرحتُ حماك في اليوم العصيب
ابكي على سعدي كما يبكي الغريب على الغريب
. . . . . .
أفنى الغرام تجلُّدي وفقدتُ في اهلي طبيبي
هذا جناهُ أبي عليّ وما جنيتُ على حبيب

والفرق بين التيمورية واخيها في هذا الانتحاب ان الشاعر الفتى عمّد الشكوى وطلب الشفقة اذ ليس من يسمع لهُ ويواسيه غير الأمّ في قبرها . اما عائشة فتعود الى انتباه لطيف في حسرتها ، وهو دليل رقة نسائية حلوة ، تعني برضى والدها ميّتاً وحيّاً . وفيه كذلك دليل على الاثر الذي تركهُ الوالد الصالح الحكيم في حياتها

ليت شعري ، حين ما حلّ القضا هل كنت عني راضياً أم نائي ؟

***

أسمعتَ القصب يشدو ؟

ذلك القصب الشرقيّ الساذج الذي سبق شدوه جبروت الفراعنة وجلال الاهرام وكتمان الهياكل — أسمعتهُ يشدو تحت النخيل على ضفاف النيل عند حلول الشفق ؟

لكأنّ شدو عائشة شدوه

انها تجرّب مزمارها في المجاملة ، وتنتحب فيه بالرثاء ، لتبلغ منهُ اشجى قرار واحرّ زفير في شكايات الغرام . وتسمو به بعدئذٍ مرفرفةً كالاحان الجنّحة ، في الابتهال الى المنيمن على دوران الاكوان وحظوظ بني الانسان (ي)